المصدر : الاهـــــرام
التاريخ : ١٩ يونية ٢٠٠٠

هوامـــش أخـــرى على دفتر التحرير!

القاعدة الأساسية فى دفتر تحرير الأراضى العربية المحتلة منذ كارثة يونيو ١٩٦٧ هى ضرورة التلازم بين مشروع للمقاومة وآخر للسلام، وبدون هذا التلازم تصير المقاومة انتحارا لأنها سوف تعنى مجابهة قوى عالمية جبارة والسلام استسلاما لأنه سوف يعنى القبول بما لايمكن القبول به وهو التنازل عن الأراضى، ولكن كلا المشروعين لايدوران فى فراغ وإنما تتحرك الأحداث من حولهما تضغط عليهما بقسوة وتدفعهما فى هذا الاتجاه أو ذاك.

الأسبوع الماضى وحده شهد ثلاثة أحداث جسام، حينما توفى الرئيس حافظ - رحمه الله - وأعلن حزب شاس عن نيته الخروج من الحكومة الإسرائيلية، وتوقفت مفاوضات الوضع النهائى فى واشنطن انتظارا لزيارة الرئيس عرفات للقاء كلينتون.. وكلها تعنى أن مشروع السلام بات يواجه مأزقا حادا خاصة أن ساعة الزمن تدق مؤذنة بانتهاء فترة السماح المتاحة للتدخل الأمريكى فى المفاوضات، مع انعقاد مؤتمر الحزب الجمهورى فى شهر يوليو، ومن بعده الحزب الديمقراطى فى أغسطس، وبعدها تصبح الإدارة الأمريكية فى حالة شلل كامل، وربما لايكون هذا المأزق أول المأزق ولا آخرها، فقبل وبعد كل شىء فقد عرفت المنطقة فترات كثيرة مثل هذه الفترة التى تواضعت فيها الآمال وتراجعت، ولم يبق من استراتيجية ترجى سوى الانتظار، لما سوف تئول إليه الأيام فى دمشق وواشنطن، لكن الانتظار ليس لحظات ساكنة يقف فيها قلب التاريخ، وعلى الأرجح فإن الأراضى المحتلة فى فلسطين لن تنتظر كثيرا إعادة التشكيل فى سوريا وأمريكا، وسوف تتفجر موجات من المقاومة العنيفة التى ظهرت أولى خطواتها منذ أسابيع بالفعل.

هذا الجدل مابين المقاومة وعملية السلام قائم منذ بداية الفاجعة وحدوث الاحتلال، وكلاهما يحتاج موارد هائلة بشرية ومادية، والأهم منهما الزمن الذى ينصرف بالاهتمام والتركيز وعمل القادة، وكلها تضحيات لابد منها لحدوث التحرير، وهو مايقودنا إلى الهامش الأخير على دفتره، وهو أن شعوبنا قد عاشت القرن العشرين كله تمارس هذا الجدل مع نوعيات مختلفة من الاحتلال والاستعمار، وربما آن الأوان عند النظر إلى المستقبل ان نرى الكيفية التى نمنع فيها حدوث كليهما من الأصل، وإذا كان الجسد الانسانى يتعرض لموجات وهجمات من الميكروبات والجراثيم والفيروسات فى كل لحظة، فإن الاجسام العليلة وناقصة المناعة وحدها هى التى تتعرض للمرض، وهكذا الحال مع الشعوب والأمم، فهناك الصحيح منها والمعافى والذى لايمكن تصور تعرضه للاحتلال والاستعمار والسيطرة، وهى الدول المتقدمة اقتصاديا وسياسيا وتكنولوجيا، وهناك تلك التى تعيش دورات من الاحتلال والاستعمار والسيطرة وفى مواجهتها توجد عمليات المقاومة والتحرير، ومن هنا تكون القضية أن الاصل فى الموضوع هو ايجاد المناعة التى تجعل أجساد الأمم غير قابلة لهذه الدورة الجهنمية، وتضعها على طريق التقدم الانسانى وتحقيق المكانة التى لاتجعل احدا يفكر من الأصل فى الهيمنة عليها.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

وربما كانت هذه هى معضلة عمليات المقاومة والتحرير العربية خلال قرن كامل، وبقدر ماشهد القرن على وجود القدرة لدى الأمة على افراز الأجسام المضادة لمواجهة الهجمات الاستعمارية البريطانية والفرنسية والإيطالية وأخيرا الإسرائيلية، فإنها لم تقدر بما يكفى على ايجاد المناعة اللازمة لمواجهة أنواع جديدة منها سوف تاتى فى المستقبل، ولتوضيح الصورة فإن الحرب العالمية الثانية انتهت وألمانيا مقسمة وخاضعة لاحتلال أربع دول هى: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وفرنسا وبريطانيا، واليابان محتلة بالكامل من قبل واشنطن مع استقطاع روسيا لمجموعة جزر الكوريل، وبعد نصف قرن من هذه الحقيقة المحزنة كانت الأولى لاتتوحد فقط وإنما تقود عملية التوحيد الأوروبية وفق شروطها، أما الثانية فباتت قوة عالمية سواء قالت بذلك أم لم تقل، حتى أن كثيرا من المحللين باتوا يتساءلون من كسب الحرب العالمية الثانية فى النهاية ؟ مافعلته الدولتان لم يكن فقط ايجاد المناعة داخلهما، بل كان تكوين عناصر الصحة والقوة التى تجعل لهما قولا وفصلا فى عالم اليوم، وبمعنى آخر فقد كان تغيير موازين القوى الكلية، وليس العسكرية، هو الذى أفضى فى النهاية إلى التحرير الحقيقى والكامل، حدث هذا بالديمقراطية التى فجرت طاقات هائلة فى الشعوب، التى تعطى بغزارة عندما يكون لها حق الاختيار، وبالعلم الذى يجعل عملية التحرير تراكما رشيدا يضيف ولاينقص، وبالقراءة الصحيحة لم يجر فى العالم بحث عن فرص يجرى انتهازها فى وقتها وادراكا للمخاطر التى ينبغى تجنبها.

وبالطبع فإن سير الأمم ليست واحدة، فمواقعها وتاريخها وهويتها قد تفرض صورا مختلفة من فقه التحرير، ولكن الحقيقة تبقى أن ايجاد المناعة والصحة، هو الذى يصل بالتحرير إلى هدفه النهائى وهو ألا تكون البلاد، ولايكون العباد، فريسة لأحد، وأظن أن هذا البعد لايزال غائبا كثيرا عن تفكيرنا العربى، فقد كان الحزن غالبا عن حق على فاة الرئيس حافظ الأسد باعتباره واحدا من رموز المقاومة، التى لم تقبل التنازل عن شبر من الاراضى السورية المحتلة، ولكن الحزن لاينبغى له أن يغطى على ماشهدناه من طريقة لانتقال السلطة لاتدل كثيرا على ان الجسد اكتسب المناعة والصحة، وعندما تتغير الدساتير دون تدبر فى لحظات وتوهب عصا المارشالية دون معارك فى ثوان، فإن مشهد المقاومة العربى يصبح ناقصا ولاشك ابعاد بناء المناعة التى تمنع تكرار كوارث تاريخية تقضى اجيالا كاملة زمنها فى التحرر منها، ولعله كان مفهوما بشدة أن يعتبر تولى السيد بشار الأسد للقيادة فى سوريا، سبيلا إلى تحقيق الاستقرار فى الدولة، وربما كان ذلك المنطق هو الذى كان وراء التأييد العربى والدولى لعملية انتقال السلطة فى دمشق، ولكن الاستقرار ليس هو التحرير، ومانحتاجه لتحقيق ذلك أكثر بكثير، فكما أن الانسان لايكون فاعلا فى دنياه فقط لأن حالته مستقرة، وإنما من خلال تنمية مواهبة وقدراته ومناعته الداخلية، فإن استقرار الأمم بدورها ليس كافيا لضمان حريتها وتقدمها ولا يحدث ذلك إلا عندما تنطلق قدراتها فى اتجاه خياراتها المشروعة.

ولعل ذلك يوضح العبء الذى بات واقعا على السيد بشار الأسد وجيله، من القادة الجدد فى العالم العربى، فقضيتهم لم تعد فقط تحقيق الاستقرار فى الداخل، والمقاومة إزاء الخارج، كما فعلت

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

أجيال القيادة قبلهم طوال القرن العشرين، وإنما بناء مايليق بالأمة فى القرن الحادى والعشرين، ويمنحها المناعة السياسية والاقتصادية التى لاتمنع فقط الآخرين من غزوها والاعتداء عليها واحتلال اراضيها، وإنما تعطى لشعوبها الفرصة فى أن تكون طرفا فاعلا فى عالم اليوم. وربما لايكون سرا على هؤلاء القادة أن شرعية الاستقرار وحدها وعلى أهميتها ليست كافية، وعلى الأغلب فإن قيمة ذلك تكون فى تحقيق شرط ضرورى لبناء شرعية أخرى، تقوم على حق الاختيار الذى يطلق المواهب الانسانية ويعطيها الفرصة للنمو والارتقاء، كما أنه ليس سرا عليهم أن الأمة من محيطها لخليجها لاتزال فى مكانة دنيا فى سلم الأمم، وفى الوقت الذى عرف العالم فيها معجزات اقتصادية كثيرة، فإن واحدة منها لم تحدث فى العالم العربى، ولعل هناك عيبا كبيرا أن تعتمد أمة كبيرة ذات رسالة خالدة على سلعة واحدة هى النفط تنتعش إذا انتعشت أسعارها، وتنكمش إذا انكمشت أثمانها وأن تكون كل صادراتها غير البترولية تقل عن صادرات دولة صغيرة ثلجية مثل فنلندا، ولايزيد حاصل جمع كل التبادلات التجارية فى كل بورصاتها خلال عام كامل على ذلك الناتج عن ساعتين من يوم واحد فى بورصة نيويورك ، صحيحج أن هناك بوادر مشجعة على بناء هذه الصناعة خلال التسعينيات، فى عدد محدود من الدول العربية مثل مصر وتونس والمغرب والأردن وإلى حد ما السعودية خلال العام الاخير، إلا أن كل هذه المحاولات لاتزال فى أولها، ولايزال الطريق أمامها طويلا ومملوءا بالخطأ والصواب، والتقدم والانتكاس، وربما كانت مثل الطائرات قد سارت على الممر، ولكنها لم تحقق الانطلاق إلى السماء بعد، وعندما يحدث الانطلاق فلن يكون آخر هوامشنا على دفتر التحرير قد انتهى فقط وإنما تكون معركة التحرير قد وصلت إلى غاياتها لأنه بعد ذلك لن يكون هناك احتلال آخر.

د. عبدالمنعم سعيد

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية